الإهداء والمقدمة

إليك أنت أُخيّ، وأنتِ أُخيّتي، بل إليك أيها الإنسان المكرم، إليك يا من وجدت نفسك موجودًا في هذا الوجود دون أن توجد نفسك، تجزم أن من أوجدك هو أقوى وأقدر منك، وقد يمضي عمرك حائرًا! قلقًا! صامتًا! تتساءل عن أشياء.. عجيبة.. مخيفة... كبيرة! هكذا تراها! كلما ابتعدت، أو تباعدت عن معين الوحي، تتلمس خيوط الإجابة الشافية عنها بصمت، تأوي إلى فراشك، فيحجبك لحافك عما حولك، دون أن يحجب عنك سيل أفكارك المتدفق عبر الفضاء، تسبح وحدك في عالم الأفكار، التي تفوق حجمك وسعة تفكيرك! خائفًا تترقب! وجلًا تتوجس! تخشى وحشة التيه الفكري، تنقِّب عن مخارج السلامة من عالم الوجود المخيف من حولك! قلقًا من ماضٍ خرج من يدك، تحاول الأُنس بذكراه، ثم تتذكر أنه (وحش!) قد التهم آباءك وأجدادك فتخشاه، ومن حاضر متفلت منك، تحاول الإمساك به دون جدوى، ومن مستقبل مرعب، لا تدري ماذا يخبئ لك ولوالدك وولدك وزوجك!

تساؤلات تترى: ليست جديدة، ولا وحيدة، ولا فريدة، قد سألها من كانوا قبلنا، سألوا: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ٢] وعن: ﴿ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، والحقيقة الكبرى التي سنبدأ منها وإليها ننتهي: أن الحق والحقيقة في هذا الوجود موجودان بك أو من دونك، لا يثبتان، ولا ينعدمان وفقًا لتصوراتك، أما أنت فطالما أنك صادق مع نفسك في البحث عن الحقيقة منطلقًا من نور الفطرة، فقد تشرفت بهذا الحق، فلن تراع، ولن تخاف أبدًا؛ لأنك بهذا الإيمان موعود بالأمان، من ربك الرحمن.

هنا مع هذا الكتاب، سنعيش مكاشفة صريحة مع الذات، حول قضايا الوجود والغيب والقرآن والأنبياء والقدر والخير والشر والموت والبعث والصراط والجنة والنار، وفهم المآلات الماضية والحاضرة والمستقبلية وأسرار الزمان والمكان، من خلال رحلة

فكرية (خاصة) وربما تكون (جريئة)! رحلة ليست شاقة، بل شائقة، رحلة الواثقين باليقين، سنحلّق مستمتعين مع عالم الأفكار، سنقتحم محظورات العالمين، ونعيش مع مباحات رب العالمين، فحيا هلّا إلى مائدة اليقين، حتى نعلم أننا وإياك على الحق المبين، وأنك لست وحدك في هذا الوجود، ولست الوحيد المتعطش لمعرفة أسراره، ربما تكون الأفضل حالًا من بين بني جلدتك، لقد سبقك من سأل: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾؟ [يونس: ٥٣]، فكان الجواب الأوحد لهم، ولنا، ولمن بعدنا هو: ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣].

أضع بين يديك عصارة جهد متواضع دام قرابة ربع قرن، فكرةً وقراءةً وتأليفًا، تدرجت مادته بالتوازي مع مراحل العمر والله المستعان، ومع تطور وهج ألوان طيف الفكر حول قضية الوجود الكبرى التي لا يستكثر على طرحها مدة ولا جهد، كلما قررت نشره، أرجع البصر والعقل كرتين لأجد نفسي في مرحلة عمرية تتطلب إعادة القراءة مرات وكرّات، حتى وصلت إلى مرحلة استحقاق النشر، يقينًا مني بأن مراحل العمر تعكس فكر المؤلف، وأن خير تلك المراحل هي مرحلة النضج والتوازن، كيف لا، وآراء الفلاسفة والمفكرين تتقلب مع مراحل العمر أيضًا، بل وحتى الفقهاء تتغير فتاواهم، ولولا فضل الله علينا ومنّته بإرسال الرسل لما استطعنا الوصول إلى هذا الأمان بالإيمان، ولما أقدمنا على نشر مثل هذه المكاشفة الصريحة مع الذات، ونحن واثقون كل الثقة بأمان اليقين، فلعلك تجد فيها بعض ما تبحث عنه، أو تفتق لك ما يُمكنك مواصلة البحث فيه على بصيرة من الله.

ربما تكون غنيًّا عن موضوع هذا الكتاب في يومك هذا، ليقين راسخ وإيمان مسبق قد منّ الله به عليك، ولكن تأكد، وأنت تعيش في عالم التقلبات والأحزان والإحباط الذي معه لن تستغني عن ضرورة جرعة تحصين ومناعة ضد ما قد يواجهك مستقبلًا في عصر هذا الانفتاح المعرفي المتفجر، فالكتاب يطمح إلى تحقيق أحد هذين الهدفين أو كليهما: إما زيادة الاقتناع واليقين والمناعة والتحصين، وربنا قد دعا المؤمنين وهم على الإيمان إلى أن يؤمنوا! وإما إلى علاج الشكوك والأوهام والوساوس السرية والعلنية وإثبات أنك في نهاية المطاف على الحق المبين، وأنك تحت رحمة رب العالمين، تذكيرًا

لك كي تتطهر باليقين من أوحال وساوس الشياطين، فتسعى إلى رعاية إيمانك وتقويته والحفاظ عليه.

تعالَ معي في رحلة فكرية مباركة، فحياك ربي من صديق صدوق محب، ضع يدك في يدي، ولنضع أيدينا بيد كل متعطش آخر يبحث عن الحق، وليأنس بعضنا ببعض قاصدين طريق النور والأمان؛ كي تعلم أنك ما دمت تفكر بحرقة مشفقًا على الخاتمة، فأنت آمن مؤمن في مأمن بهذا الإيمان؛ لأنك قلق على شيء عظيم أنت تملكه، فانعم بإيمانك هذا، وما بعد هذه الدنيا، فأنت الذي تحدد طريقك بنفسك، لقد ترك الخالق لك الخيار في النهاية، وقدم لك خارطة طريق النجاة وطريق الهلاك واضحة جلية، فمردك الحتميّ إلى من أوجدك أصلًا، وأمسك بقدرك كله إلى الأبد، إنه ربنا الواحد القادر الحي الذي نستودعه شأننا كله، مسلمين مستسلمين مستمسكين بعهد نبقى عليه بكل يقين إلى أن يجمعنا عنده: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤- ٥٥].

لقد خاض الخائضون من قبلنا محاولين كشف أسرار هذا الوجود، فلم يصلوا إلى نتيجة، فلنتدارك أعمارنا، متعظين بمن سبقنا ممن أفنى عمره مهرولًا وراء سراب المعرفة البشرية، معرضًا عن أخبار الوحي، حتى وجد نفسه مصطدمًا بحقيقة ضعفه وعجزه وجهًا لوجه أمام المصير المحتوم، وسواء آمن الناس بالغيب أم كفروا به، فلا جوابًا شافيًا عن كل تساؤل غيبي، ولا حقيقة مطلقة سيصل إليها الإنسان عن سر هذا الوجود، إلا من الوحي المنزل من عند الله وحده، الوحي الذي وقف، ويقف، وسيقف، شامخًا متحديًا أمام قامة الزمان إلى الأبد، أمام الإنس والجان على حد سواء: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

تعالَ ننعم سويًّا على مائدة الخالق العظيم، استجابةً لنداء ربنا القائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦]، أو

تقويةً لإيماننا الموجود بفضل الله: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، أو للثبات عليه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾[إبراهيم: ٢٧]، أو أن نجمع ذلك كله، مستعيذين بالله من كل وسواس وشك يعترضنا في حياتنا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، متضرعين إلى الله: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

أقدم لك هذا الكتاب: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾[النمل: ٧٩].

*****